في الأدب المقارن

الحكمة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

يولد المرء جاهلا ثم لا تزال التجارب تبصره بحقائق الحياة ولا يزال الدهر يعلمه ويؤدبه ، ولا يزال هو يثاقب فكره ، يتعظ بماضيه وينتفع بمشاهداته ، ويصوغ من جزئيات التجارب التي يمر بها كليات يلخص فيها نواميس الحياة وطباع الأشياء ، التي يجدر بالعاقل أن يسايرها ويحتال لها ، لا أن يصادمها ويجري على غير سننها ، وتلك هي الحكم التي هي لباب التجارب وثمار المعرفة ، والتي يغتبط الأديب أي اغتباط حين يستخلص عصارتها من مرير الشدائد وعصيب الأزمات ، ويتجلى له ضياؤها بعد أن تنقشع غيوم المطامع وعواصف المخاوف ، ويتوارثها الناس جيلا بعد جيل ، وتتشكل مع اختلاف بيئاتهم وتقاليدهم ، ويشدو بها الصغار وهم ناشئون ولا يعرف صدقها إلا الكبار ، بعد أن يخوضوا أتون التجارب الذي ينضج النفوس

فالحكمة خلاصة التجربة العملية ، ولا تقرأ في الكتب ولا تؤخذ عن المؤدبين . ومن ثم يستوي فيها الخاصة المثقفون والعامة الأميون ، إذ كان كلاهما يستقي من معين الحياة المشهودة ؛ وتذيع بين العامة أمثال وحكم هي غاية في الصدق ونفاذ النظرة وبلاغة التعبير . وقد يطابق بعضها أمثال الخاصة والحكماء في كتبهم ؛ وتدل تلك الحكم السائرة بين الشعب على الكثير من أخلاقه وأعماله ، من سعي وتوان ، ووقار واستهتار ، وامعان في الحروب واستراحة إلى السلم والدعة ، ومن ثم نرى كثيراً من الأمثال المتخلفة عن جيل الانحطاط الماضي ، رغم صدقها وعمقها مصوغة في أبذأ لفظ وأفحش صورة ، ونرى كثيرا منها يحث على القناعة والتواكل والقعود .

ومن الحكم ما ترسل موجزة مستقلة كأنها القضايا المنطقية مبدوءة ببعض حروف الشرط أو أسمائه ، ومنها ما تصاغ في قصة محكمة ذات مغزى ، ومن تلك القصص ما ينسب إلى حكيم من الأقدمين كلقمان ، أو إلى شخص خيالي مثل جحا الذي صاغ العامة حوله قصصا بالغة غاية الحكمة والمتعة والفكاهة ، ومن تلك القصص ما يجري على ألسنة الحيوان ، ويقوم الأسد فيها بدور السلطان ويلعب الثعلب دور المكر والاحتيال ، ويمثل الذئب دور الغدر والافتئات ، وقد كان للأمم القديمة كالمصريين والفرس والهنود ، من كل هذه الضروب حظ وفير ، وفيها يبسط الحكماء المجربون لأبناء جلدتهم ثمار تجاربهم ، ويحضون على حسن المعاملة ويدعون إلى الفضيلة .

والشرق ، مهد المدنيات القديمة والامبراطوريات العظيمة ، والملكيات المطلقة ذات الحول والأبهة والبذخ ، والموارد الواسعة والكنوز الطائلة ، هو مهد الحكمة ومطلع الحكماء والأنبياء ، فيه تتجلى طباع الأشياء على جهارتها ، ويتجاور البذخ المفرط والبؤس المرمض ، وتتابع السعود والنحوس ، وتتقلب الأيام والدولات وتعقب عصور الرخاء والازدهار عهود الشدائد والادبار ، ومن كل ذلك تستخلص عبر الحياة وعظاتها ، ويتجلى لذوي النفوس العالية غرورها وبهارجها ، وتنصرف همة الحكماء والفضلاء إلى هداية مواطنيهم إلى سبيل الخير والسلامة وتلقينهم كيف يعيشون في أمن من جور الغاشمين وبطش الأقدار ويسعون جهدهم لتخفيف ما حولهم من آثار البؤس والبلاء ، وإصلاح مايرون من أسباب الفوضى والفساد ، وهكذا كان يظهر المصلحون والأنبياء بين اليهود والهنود وغيرهم من أمم الشرق ، بين الفترة والفترة .

وللحكمة الصادقة المصوغة في اللفظ البليغ المحكم مكانها في أدب كل لغة : فني كل أدب ما لا يعد من الحكم المتواترة يقتبسها الأدباء في مواطنها ، وقد نسيت أسماء قائليها وضاعت نسبتها وصارت من تراث الأدب المشاع ، وفيه كذلك ما لا يعد من آثار الشعراء والكتاب التي أساسها الحكمة وقوامها خلاصات التجارب التي عركتهم ؛ وفي الأدبين العربي والانجليزي تراث حافل من الحكم والامثال ، وفي كل منهما أدباء اشتهروا خاصة بصوغ الحكم وجرت آثارهم على الأقلام والأفواه ، لما تمتاز به من صدق النظرة وشمول الفكرة وإيجاز اللفظ .

ففي الانجليزية اشتهر شكسبير أولا وبوب ثانياً بروائع حكمهما . وسارت كثير من أبياتهما مسير الأمثال ، لما امتاز به كلاهما من التمكن من اللغة وبلاغة الأداء ووجازة التعبير ، رغم اختلافهما فيما عدا ذلك من نظرة إلى الحياة ومذهب في الفن؛ وندر من كبار أدباء الانجليزية من لم يسر له مثل أو أكثر فيما توفر عليه من موضوع كالطبيعة والجمال والاجتماع والمرأة وعلم جرا ومن الانجيل سرت في اللغة الانجليزية المكتوبة والمتكلمة أمثال .

وحكم عديدة ، لا تزال تحمل طابعها الاسرائيلي وتدل باسمائها أعلامها ومواطنها على نشأتها الشرقية ؛ وسرت فى الانجليزية كذلك أمثال عديدة من الاغريقية واللاتينية يترجمها الأدباء إذا استعملوها وقد يثبتونها فى لغتها الأصلية .

بيد أن ذلك هو كل ما هنالك ، والحكمة فى الانجليزية نادرة إلى حد بعيد ، وهى لم تكن من مطلوب أدبائها ولا من هم شعرائها يتوخونها عمداً ويودعونها اللفظ البليغ الموجز ، ولم يكن الايجاز من دأبهم كما كان من دأب شعراء العربية وأدبائها فى أحسن آثارها وأزهر عصورها ، فالأديب الانجليزى إذا أخذ فى الكتابة أرسل لخياله العنان ، وأبرز فكرته الواحدة فى شتى الصور متسلسلة مستتبعة غيرها من الأفكار ، أما الأديب العربى فيؤثر الايجاز البليغ ويودع المعنى الواسع الشامل البيت الموجز أو العبارة المحكمة ويتجه إلى غيره ، وهذا الايجاز المشهود فى جيد الشعر الجاهلى راجع بلاشك إلى أمية العرب وحاجتهم إلى الاستغناء بالقول الجامع ، والاجتزاء بالحكمة الشاملة ، وقد توورثت هذه الخلة من خلال الأدب الجاهلى فيما تلا ذلك من عصور الأدب العربى كما توورث غيرها من خلال .

ومما حبب العرب فى جاهليتهم فى الحكمة أخذهم بحياة الحل والترحال ، واشتغالهم أبدا بالقتال وإدراك الثارات : فتلك حياة شديدة كانت تتطلب كثيراً من العمل وقليلا من الكلام المفيد مع قلته . وكان الانتفاع بالتجارب من أكبر أسباب النجاح فيها ، والاشتهار بالحكمة والدراية من صفات الشيوخ والرؤساء ؛ ومنهم كان كثير من فحول الشعر ورجال البيان ومصاقع الخطباء كالأفوه الأودى وأكثم بن صيفى وقس بن ساعدة الأيادى . ومن ثم أثر عن الجاهليين مالا يعد من روائع الحكم نظما ونثراً . ومن أمثلتها خطبة قس بن ساعدة وحكم زهير بن أبى سلمى فى معلقته . وقد أعجب المتأخرون من الشعراء والأدباء بهاتيك الحكم أيما إعجاب ، وشمروا عن ساعد الجد للاتيان بامثالها ، وعدوها محك قدرة الشاعر وبرهان الشاعرية الصادقة ، وكاد يلهيهم الاشتداد فى طلبها عن ابتكار شىء جديد فى الشعر

وكان العرب فى الجاهلية لا يعدون الشاعر فحلا حتى ينطق بالحكمة ، فما لم يأت بشىء منها فهو بعد غر لم ينضجه تنور التجارب ولم تتكشف له حقائق الحياة ؛ وظل الأعشى فيما قيل مزوياً عن مرتبة الفحول ، رغم ضربه بسهم فى مجالات المدح والهجاء والاعتذار ووصف الخمر ، حتى قال فى مدحه سلامة ذو فائش : « والشىء حيثما جعلا » ، فرفعته هذه الجملة الموجزة إلى مصاف النابغة وامرىء القيس. وتروى حكايات كهذه عن شعراء الاسلام : فقد قيل إن جريرا سمع دالية عمر بن أبى ربيعة التى يقول منها : « إنما العاجز من لا يستبد » ، فقال : « ما زال هذا الفتى يهدى حتى قال الشعر » ، فهو لم يحفل بكل ما قاله الفتى فى التشبيب ، حتى ضرب على وتر الحكمة فاستثار إعجابه .

وأدب الجاهلية وصدر الاسلام حافل بتلك الحكم البليغة المشتملة على تجارب قائليها من سادة القبائل وأشرافها ، الجامعة لنظراتهم فى الحياة وخطتهم وسننهم فيها ، وتمدحهم بما رسموه لأنفسهم من مناهج وما أخذوها به من فضائل ، وهذا الباب من أكرم أبواب الادب العربى وأدعاها إلى الاعجاب ، ومن أجله كان العرب فى تلك العهود يغالون بالشعر وينشئون أبناءهم على مدارسته ، وكانوا يسمون هذا الباب من الشعر بالادب ، لأن حفظ آثاره والتمثل بها يؤدبان النفس ويهذبان الخلق ، وذاك هو الاسم الذى أطلقه أبو تمام فى حماسته على ذلك الضرب من القول الشامل للحكمة والتمدح بالفضيلة . وقد اتسع معنى هذا اللفظ فبعد أن كان اسم جزء صار اسم كل وأطلق على الشعر جميعه والنثر معاً . وليس شك فى أن هذا التطور الطبيعى البسيط هو منشأ كلمة أدب اللغة ، وإن يكن بعض المستشرقين قد تحذلق وزعم أنها مقلوبة عن كلمة دأب ، فذلك من قبيل النظريات المحضة التى لا تبلغ مبلغ اليقين أبداً ؛ وليست إلا من قبيل التظرف العلمى والتظاهر بالتعمق فى البحث ، وإن لم يجد ذلك العلم فتيلا ، ولم يدرك يوما منزلة الاقناع .

كانت الحكمة من أظهر أبواب الأدب فى الجاهلية وصدر الاسلام ، وكان من أقطابها فى الجاهلية من ذكر ، وفى الاسلام الامام على والأحنف بن قيس وكثير من الصحابة ، وبظهور الاسلام ثم توطد الدولة زاد العرب كافاً بالحكمة وزاد الداعى اليها أهمية ، فقد جاء القرآن الكريم والحديث حافلين بروائع الحكم وجوامع الكلم ، التى أربت على الغاية من البلاغة والسمو ، وحثا على طلب الحكمة التى هى ضالة المؤمن . وقد ظل الكتاب والحديث دائما نموذج الأدباء ومستقاهم ؛ فلما فرضت الملكية المطلقة سلطتها كاملة ، وأخرست الأفواه وأسكتت النقد ، عادلة حينا وجائرة أحيانا ، وجد الناس فى الحكمة الشاملة المعممة سلوة للنفوس المقهورة ، وعزاء عن المآرب المحظورة ، وتنفيسا عن المطامح المستورة ، واتقاء لشبهات السلطان ، فأجريت الأمثال والمواعظ على ألسنة السلف الصالح ، وملوك الأمم الغابرة وحكمائها وفلاسفتها ، ووضعت على أفواه الحيوان والارواح ، وأرسلت شعرا ونثرا ، وترجمت عن اللغات ، وكان من ذلك مترجمات ابن المقفع .

وكانت الصبغة الدينية التى لازمت توطد الدولة الاسلامية وتطور المجتمع الاسلامى ، داعيا آخر إلى انتشار الحكمة فى الادب ، وفى الحكمة كتب ونظم كثير من رجال الدين ، ومن آثار الحكمة التى مبعثها الشعور الدينى اشعار أبى العتاهية وابن عبد القدوس والامام الشافعى ، ومما زاد هذه النزعة الدينية احتدادا ، وهذه الحكم الدينية ذيوعا ، ما كان يجاورها من مظاهر الترف المغرق وآثار اللذات والمفاسد ، فكانت تلك رد فعل لهذه ، وكان من الشعراء المغرقين فى المجون والتبذل كأبى نواس وبشار ، من تعاودهم رجعات من التبصر فى الحياة وغرورها ، حين تسئمهم اللذات ويرهقهم بشمها وخمارها ، فيرسلون فى أشعارهم من الحكم ما قد ينسب إلى أزهد الزهاد وأحكم الحكماء.

وبدخول الأدب العربى طوره الفنى طلب الشعراء البراعة والتفنن بصوغ الحكم وضرب الأمثال محاكاة للأقدمين وتوليدا من معانيهم ، وكانوا يشفعون الحكمة الانسانية أحيانا بمصداقها من عالم الطبيعة والحيوان والجماد ، فاذا أرسل أبو تمام حكمة فى ظهور فضل المحسود على يد الحاسد ضرب لذلك مثلا اشتعال النار فيما جاورت وإعلانها بذلك طيب عرف العود ، ويقول فى موضع آخر منتزعا مصداق كلامه من ظواهر الطبيعة :

وإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيكون بدرا كاملا

ويقول غيره :

يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقى اللحاء

واشتغل المسلمون بدراسة الفلسفة اليونانية دون الأدب اليونانى ، فتأثر أدباؤهم بتلك الدراسة ، وازداد ولعهم بالحكمة ، واتخذت حكمتهم صبغة فلسفية أقرب إلى القضايا المنطقية وأشبه بالاستقراء العلمى ، وذلك واضح فى أشعار المتنبى والمعرى اللذين انحرفا بذلك بعض الانحراف عن الأسلوب العربى الأصيل ، الذى يمتاز بالبلاغة والوضوح والاطلاق ، وبلغ من تاثر شعر الحكمة فى العربية بروح الفلسفة اليونانية ، أن أبا على الحاتمى وضع رسالة يرد فيها أكثر حكم المتنبى إلى كلام أرسطو . وفى شعر المتنبى بلغت الحكمة العربية أوج رقيها ، أو بالأحرى بلغ الشعر العربى ذروة عظمته ، وبلغ من احتفاء الشعراء بتضمين الحكمة أشعارهم أن قيل فى الموازنة بين أبى تمام والمتنبى والبحترى إن الأولين حكيمان ، والشاعر البحترى ، لكثرة ما فى شعرهما من الحكم ، وأبو تمام هو القائل فى ذلك الضرب من الشعر :

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم
ولولا خلال سنها الشعر مادرى بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

فالولع بالحكمة ظاهر فى الأدب العربى : فاقتباس المأثور من كلام المتقدمين أكثر ذيوعا فى العربية منه فى الانجليزية ، والحكمة مادة جانب عظيم من كتب الأدب التى تحفل بما أثر عن الحكماء والخلفاء والفقهاء من جوامع الكلم ، وهى موضوع مطولات كثيرة كمقصورة ابن دريد ولامية ابن الوردى وأرجوزة صاحب كتاب الصادح والباغم ، وبها تمتلىء الخطب المنسوبة إلى وفود العرب إلى كسرى وإلى أهل بيت المهدى عند مشاورته لهم فى حرب خراسان . وقد أولع الكتاب بنثر حكم الشعراء فى رسائلهم مسجوعة منمقة ، كما أولع الشعراء بنظم الحكم السائرة وأمثال العامة ، وكان الشعراء أكثر لجوءا إلى نظم الحكم وسرد العبر والاستشهاد بعظات التاريخ خاصة فى قصائد الرثاء ورسائل التعزية وأشعار الشكوى والوجدانيات ؛ وكثيرا ما كانت تساق الحكم فى هيئة نصائح . ويقول ابن عبد القدوس « والنصح أغلى ما يباع ويوهب » ومن شعر النصيحة جميعة محمد ابن بشير التى يقول منها :

قدم لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن غرة زلجا

أما الموضوعات التى طرقتها الحكمة فى الأدب العربى فلا تحصر ، فقد جالت فى شتى نواحى الحياة : من غرور الدنيا وتقلبها ووجوب الحذر منها وتوقع زوالها ، إلى مزايا الشدائد وامتحانها للرجال ، إلى ندرة الصديق الصدوق ، ومن شؤون الحياة اليومية إلى سياسة الدول وحكم الشعوب ، ومن آداب الحوار إلى آداب مصاحبة السلطان ؛ وكان بعض الشعراء يتوفرون على ضروب دون غيرها من الحكمة ، حسب ما توجههم اليه بيئاتهم ونفسياتهم ؛ فأبو العتاهية كان دائم الذكر للموت ، والمتنبى كان يشتق حكمه من حياة التناحر والمطامع والمعارك الأدبية والسياسية التى كان يحياها ، والمعرى كان يستق حكمته ويستخرج عبره من ظواهر الكون التى كان دائم الاشتغال بها ، فهذان البيتان من نظمه يحملان طابع تفكيره ولا يمكن أن ينسبا إلى سواه :

يغادر غابة الضرعام كيما ينازع ظبى رمل فى كناس
سجايا كلها غـــدر ولؤم توارثها أناس عن أناس

فكثير من الظروف التى أحاطت بالأدب العربى فى الجاهلية والاسلام كانت تدعو إلى انتشار آثار الحكمة فيه ، فجاء حافلا بها منثوره ومنظومه على متعدد الصور ومختلف الأوضاع ، ومثل هاتيك الظروف لم تصاحب الأدب الانجليزى ، ومن ثم كانت الحكمة فيه أندر كثيرا ، فلا البداوة ولا الملكية المطلقة ولا رد الفعل المنعكس من الترف المفرط ، ولا الروح الدينى المتغلغل فى المجتمع ، لم يؤثر شىء من ذلك فى الانجليزية تأثيره فى العربية ولم يقتصر الانجليز على دراسة الفلسفة الاغريقية بل درسوا معها